عفيف فراج

الرواية العربية الحديثة ... تنادي الحرية السياسية

اذا كان الوعي النافذ من مسام العمل الادبي ليس في النهاية سوى الوجود الواعي للاديب ، فان السؤال ماذا يريد الكاتب ان يقـول لا يكون ـــ ولا يجب ان يكون ـــ عدوانا ميكانيكيا من الخارج على عضوية العمل الادبي ، وحرية الاديب في ترجمة الواقع تبعا لرؤيته ، وانما مطاردة تتقصى العلاقة القائمة فعلا وموضوعيا بين الواقع (موضوع الوعي) والاديب (الذات الواعية) وذلك من اجل استبانة مدى ومستوى توثق وتعمق هذا التفاعل المتبادل بـين المبدع وموضوع ابداعه تفاعلا يربط مقدار اثراء الاديب للواقع ، بمقدار تمكنه من امتلاك كل ما في الواقع من ثراء.

واذا كان الوعي الانساني في مبتدئه،هو وعي الانسان المتولد من الطبيعة ، لتمايزه وعلوه عن المعطى الطبيعي ، فان ارقى اشكال الوعي التطوري ، لا بد وان يتمثل في الابداع الذي يجسم هذا التمايز بين الواقع المعطى مـن جهة ، والمثال او المدرك المنشود من جهة اخرى . أي انه ذاك الذي يستجلي المسافة المباعدة بين ما هو عقلي وما هو واقعي ، استجلاء يولد الطموح الانساني المشروع الى فرض العقل والمثل الثورية على واقع يختلف عنها ومعها .

* *

ان ادب الثورة اذن ، هو الذي يقيم هذا الحوار المتوتر بين الواقع والمثال ، بهدف جعل الواقع مثاليـا ، وليس من اجل جعل العقل واقعيا ـ بمعنى الخضوع للواقع ـ كما يريد له المحافظون .

لهذا نجد ان الادب الرؤيوي الاستشراقي يعـانق الزمن الاتي عبر الامتداد العمقي في الحاضر . فتمثـل اللحظة والفوضى عمقيا في الان،هو الذي يمكن من استبانة علاقة المرحلة بالديمومة ، والحاضر بالصيرورة . وبدون غوص الوعي الادبي الى باطن الواقع ، وملامسة قاعـه الصخري ، لا يمكن للاديب ان يتمكن من الاستناد الـى قاعدة صلبة تمكنه من تجاوزه رؤيويا الى واقع افضل .

* *

من هنا نحاول تتبع هذه العلاقة الجدلية ونستبين طرائق حلها في الادب الروائي ، علنا نصل الى فهم افضل لواقع المعاناة العامة في الابداع الذاتي . ولا تبخل الرواية العربية المعاصرة بمدنا بمثل هذا الفهم ، وان كان الاطلاق غير جائز .

* *

ان مصاريع الرواية العربية الحديثة منذ الستينات، تنفتح للدارس على ساحة يغطيها صراع دام بين قهر كلي الحضور ، وحرية مستلبة كلية ، صراع قل نظيره في الادب العالمي من حيث الاتساع والقسوة والكثافة . ان «التيمة» الاكثر ترددا في روايـة الستينـات ، وحتـى منتصف السبعينات ، تفتح زهورا من الدم النازف تحت سياط التعذيب ، وفي اقبية السجون التي جددتها ووسعتهـا شرائح من الطبقة الوسطى ، وسط اصرارها على اجراء التغيير الاجتماعي على قاعدة القمع السياسي .

* *

ان الرواية تعكس وعي « العبد » بذاته الحرة بالقوة من قيود « السيد » ـــ لاستخدام مصطلحات هيجـل الرامزة ـ . وهذا الموضوع هو الخيط المضموني الصلب الذي تنتظم فيه اكثريـة الروايات العربيـة الهامة التي صدرت على امتداد الخمس عشرة سنة الماضية . هذا الوعي هو في ذاته مؤشر تقدم او نضج كونه بداية مشروع تحول الانسان بالوعي من انسان في ذاته الى انسان لذاته.

لكن الوعي المستشف من قراءة روايات هذه الحقبة، يبقى مع ذلك ، بل ولذلك ، وعيا شقيا مشقيا ، ينز احباطا ومرارة في ظل « العسكري الاسود » الذي اختاره يوسف

ادريس عنوانا ليس لقصته الطويلة وحسب ، وانما عنوانا لمرحلة زمنية طويلة من القمع السياسي ، تتواصل فيها الاربعينات بالخمسينات ، حتى اصبح هذا العسكري كما يقول ادريس في مقدمة قصته « رمزا لكل ما يناله جيلنا من ضربات واصبح هو مبعث رعب هذا الجيل ، رعبا جعل كل منا يتولى ارهاب نفسه بنفسه ويتولى اسكاتها واخضاعها للامر الواقع الرهيب » لقد جبه « العسكري الاسود » وعي الروائيين العرب على مدى الحقبة التي تتعامل معها هذه الدراسة (منذ مطلع الستينات وحتى منتصف السبعينات) وفرضت عليهم مجابهة مواقف تراوح بين البطولة والفرار ، بين التمرد الفردي الانتحازي ، والتخدر والاستسلام .

ففي غياب التنظيم السياسي للجماهير تولد البطولة الفردية ، وقد ترتقي درجات التصوف وسط تحسس بضآلة الفرد امام حجم التغيير المطلوب . وهكذا يولد المتمرد المأزوم ، والمواجهة الفروسية لموقف صعب ، قبوله مهانة ، والتمرد عليه بطولة تراجيدية في أحسن الاحوال .

وهكذا يطلق بطل « الفهد » لحيدر حيدر رصاص بندقيته على الدرك ، عله يوقظ وعيا يفتح ثغرة في جدار الواقع القهري الصلب . فتلفه الجماهير بهمسات الاعجاب والعطف ، ثم التخدير والنصح فيهوي البطل وحيدا .

ويخرج بطل « اللص والكلاب » لنجيب محفوظ من سجن ضيق الى سجن للجماهير ، يرفع مسدسا يتيما الا من عطف جماهيري عاجز ، ويطلق رصاصات كان مقدرا لها ان تطيش دون ان تصيب هدفا ، ومطلقها سعيد مهران مدرك الى ان رصاصاته لن تزيل من الواقع لا معقوليته « ولكنها ستكون احتجاجا داميا مناسبا على أي حال كي يطمئن الاحياء والاموات ولا يفقدون آخر امل » .

اما الروائي الاردني تيسير سبول ، فقد كانت روايته « انت منذ اليوم » رصاصته الوحيدة في جسد الواقع الذي دفعه الى انتحار حياتي يلتمع في تلك الزفرة الضائقة بكل ما في الوجود من قوى القهر والنفاق والازدواجية ، والتي تجيء في الرواية المذكورة :

« لقد آن لكل هذا ان ينتهي ، كما تنتهي كل حقارة اخرى » .

لكن كل هذا لا ينتهي !

وها هو « آخر امل » في تجنب كارثة الخامس من حزيران ينازع في رواية ثرثرة فوق النيل (١٩٦٦) على ظهر عوامة يتخدر فيها العقل العاجز عن ازالة لامعقولية الواقع المحسوس عشية الهزيمة الحزيرانية . هذه الرواية الاستشرافية كتبت بعد خمس سنوات على صدور رواية « اللص والكلاب » (١٩٦١) التي طالب فيها البطل قضاته بدراسة ظاهرة قهر الثقافة والحريات .

والحقيقة هي ان معظم الروايات العربية الهامة هي نتاج التشكيل الفني لمادة الصراع بين القهر والحرية .

يشهد على صحة هذه الموضوعة بالاضافة الى الروايات التي ذكرنا روايات كثيرة اهمها رواية «الكرنك» لنجيب محفوظ (١٩٧١) «الضحك» و « رياح الخماسين » لغالب هلسا، «تلك الرائحة» (١٩٦٦) و «نجمة اغسطس» (١٩٧٤) لصنع الله ابراهيم «الاشجار واغتيال مرزوق» و « شرق المتوسط » لعبد الرحمن منيف ، « القطار » لصلاح حافظ (١٩٧٤) « القلعة الخامسة » لفاضل عزاوي (١٩٧٢) « شقة في شارع ابي نواس » لبرهان الخطيب . كما ان القمع يشكل احد اهم ابعاد روايات كبيرة مثل «عودة الطائر الى البحر» لحليم بركات (١٩٦٩) و « السفينة » لجبرا جبرا (١٩٧٠) والزيني بركات لجمال غيطاني، والزمن الموحش لحيدر حيدر. و«الوشم» للربيعي . ولا نسقط من هذه القائمة روايات هامة اخرى يتقاطع فيها القهر الجنسي والابوي والسياسي مثل رواية « الصمت والصدى » لامين العيوطي ، و « احزان مدينة . . طفل في الحي العربي » لمحمود دياب (١٩٧١) اضافة الى روايات أخرى نبتت من ذلك الصدع الهائل الذي انزلته الهزيمة الحزيرانية في الوعي الشعبي والادبي وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر « اللعب خارج الحلبة » لخيري شلبي التي يرمز فيها للعجز عن التحرك السياسي بالعجز الجنسي .

هذا الوعي الشقي ، بحياة تسير على مستوى دوني ، غير عابئة بأفكار وثقافات، تصيح حتى يبح الصوت ويتكسر في سراديب السجن او يضيع في السراديب النملية الواقية التي يقيمها الخائف ، ينعكس في مرآة بانورامية هائلة في روايات عبد الرحمن منيف « الاشجار واغتيال مرزوق » و « شرق المتوسط » حيث ينتصب غربي المتوسط في مقابل شرقيه وعدا بالحرية ، وليس نقيضا « حضاريا » قيميا كما تعودنا ان نراه في مسلسل يمتد بين «عصفور» توفيق الحكيم الشرقي ، ورواية « موسم الهجرة الى الشمال » للطيب صالح ، مرورا برواية « الحي اللاتيني » للدكتور سهيل ادريس .

هذا الوعي بانعدام الامان في الوطن يصل ذروته الكابوسية في رواية « الضحك » لغالب هلسا ، حيث نجد المخبرين يسكنون باطن الشخصيات المرتعبة ، ينامون تحت اغطيتها ، ويرقدون تحت اجفانها حتى اذا ما ايقظهم الكابوس يجدون المخبرين امامهم فعلا !

ويغوص موضوع القهر عمقا في روايتي « تلك الرائحة » و « نجمة اغسطس » بحيث يشكل وسيطا كيميائيا Catalyst يحيل حياة البطل الخارج من السجن الى حركة آلية دائرية مفرغة .

فنحن في ادب « ابراهيم » الروائي ، في حضور بطل لا مكان له ولا انتماء ، ولا انتظار لغد آخر .

فعيون البطل في كل من الروايتين لا تضحكان ولا تدمعان، ولا يومض فيهما بريق المفاجأة والتوقع والفرح . لقد اطفأ السجن وانكسار التنظيم السياسي كل بريق ، فتخطى

البطل ثنائية الامل والخيبة .. وكأن البطل العائد من السجن بلا اسم او هوية او موقع او علاقة مؤنسة ، شبح عاد ليومىء الى معالم الجريمة الموضوعية التي اودت بكل ما يعز على مثقف كان ملتزما .

هذه الخلفية السوداء ، تمتد في رواية « نجمة اغسطس » على رقعة تاريخية وسيعة تسقط رموزها على الحاضر وتمد ظل قهر الدولة الفرعونية المركزية ومصر محمد علي « ذابح المماليك » على ساحات مصر الحديثة التي يتحرك فوقها نماذج من اطباء ومهندسين وصحفيين يتحسسون انهم « ابناء الجيل الذي ضاعت منه بهجة الطفولة والشباب بين قنابل الطائرات وعربات السجون والصور الفامضة عن الجنس » انهم كما تقول الرواية « ضحايا الالهة التي تطلب من البشر ان يشيدوا لها المعابد ، ويحرقوا البخور ويتلوا الصلوات ويقدمون الذبائح » .

★ ★

والموضوعة او « التيمة » نفسها تتردد في رواية «القلعة الخامسة » لفاضل عزاوي .

وبطل هذه الرواية يتميز ببراءة سياسية كاملة تعمق حس المأساة حين يقع الاعتداء على حريته في وطن الامان المفقود .

اننا امام مفارقة مأسوية . انسان يقصد مقهى على امل ان يحظى بامرأة ، فيقتاده حماة الامن الى السجن واذ توقظ الصدمة وعي البطل على لا معقولية الوجود ماثلة في قوى القهر والعبودية العابثة المهتاجة ، فانه يرفض الدفاع عن نفسه او الانحناء والاستجداء لجلاده . يغوص في باطن براءته الذاتية ، يحفر فيها الخنادق ويحصنها بارادة رواقية لا تعترف بآلام التعذيب ، ولا تتوق الى فرح في عالم خارجي . وبهذه الارادة الصوفية يقاوم الارادات الهمجية المعتدية . ولانه يدرك ان الجلاد يراهن على جسده الضعيف ليستذل ارادته ، يقرر ان يخلع هذا الجسد عنه ، كما تخلع الحية جلدتها ويسلمه للجلادين بترفع حكيم صوفي مدرب ، وحين تنزل السياط على الجسد «تضيء الروح في الداخل كمدينة في قلب النهار» .

★ ★

في موازاة ابراز هذا الواقع بطريقة النيجاتيف الفني، يبرز تيار روائي يلتقط الواقع نفسه ويتعامل مع سلبياته بطريقة اكثر جلية تعلي نبرة المقاومة والمجابهة على اللحن المأتمي .

واحد اهم روائيي هذا التيار هو الروائي السوري حنا مينه . في رواياته يلتحم الفرد بمضامين جماعية يبقى امينا لها ، رغم ان التوتر الدرامي والحركة الجسدية والنفسية لا تنقطع فيها بين قطبي المجابهة والفرار ، مع تغلب قطب المواجهة ، كما نرى في روايات « الثلج يأتي من النافذة » و « الشمس في يوم غائم » و « الياطر » فالابطال في روايات مينه يتصلبون تحت مطارق المعاناة ليتحولوا الى ادوات مجابهة صلبة .

« تستطيع ان تقتل الانسان ولكنك لا تستطيع ان تدمر ارادته » .

تلك حكمة شيخ همنجواي التي يتمثلها جيدا ابطال مينه وعلى رأسهم الطروسي بطل الشراع والعاصفة .

★ ★

في هذا الخط من المواجهة،يندرج آخرون في طليعتهم غسان كنفاني في رواية « ام سعد » وصلاح حافظ في « القطار » وشريف حتاته في روايته ذات الجزئين «العين ذات الجفن المعدنية» و «جناحان للريح» ١٩٧٤ واسماعيل فهد اسماعيل في رباعيته « الضفاف الاخرى » وفيصل حوراني في رواية « المحاصرون » ١٩٧٣ . ان ابطال صلاح حافظ المنحشرين في عربة قطار ينقلهم من سجن الى سجن داخل مصر ، ينقلون بتماسكهم وتوحدهم مع قضيتهم التناقض والقلق الى صدر اليوزباشي المكلف بحراستهم ، وينقلون جرثومة الفرح وروح التحدي الى جمهور كل محطة يتوقف فيها القطار الذي يبدو وكأنه موعد القدر المنتظر من كافة ابناء مصر .

اما «ام سعد» بطلة رواية كنفاني فانها روح العاصفة المنطلقة من حبس المخيم لتهدم الحبس بالمعنى الاوسع والاشمل .

« الحبوس انواع » تقول ام سعد .. « انواع ! المخيم حبس ، وبيتك حبس ، والجريدة حبس ، والعشرون سنة الماضية حبس » اما الذين لا يناضلون من اجل الانعتاق فانهم يوهمون انفسهم بأن قضبان الحبس الذي يعيشون فيه مزهريات !

طول عمرك حبس .. تقول ام سعد للذي لم يتعرف الى ضرورة النضال مدى عمره .

ان ام سعد هي روح الثورة الفلسطينية ، امرأة هي كل الجماهير العاملة «التي تقف تحت سقف البؤس الواطي في الصف العالي من المعركة ، وتدفع ، وتظل تدفع اكثر من الجميع « كما يقول غسان في مقدمته للرواية » ..

★ ★

ولان القمع السياسي لم يكن (حتى الان على الاقل) مشكلة لبنانية جوهرية ، فان هذا التميز للواقع اللبناني ينعكس تميزا في مضمون الرواية اللبنانية .

فالتناقض الجوهري الاهم البادي في هذه الرواية هو اغتراب روحي عن الواقع المركنتيلي التجيري الذي فرض باثمه الكنعاني والفينيقي المتمادي في البورجوازية التجارية العصرية غربة روحية معنوية غربة تكتسب الشمول والتعقد حين يضاف اليها بعد الاغتراب القومي الذي تعبر عنه ليلى بعلبكي في رواية « انا احيا » ١٩٥٩ في اشارة رمزية دالة « انا لست شقراء ولست سمراء فمن اين له ان يفهم انني من هنا من لبنان » كما ان التحسس بالدونية

سمير عيادي

عن الكتابة والظرف

طرح نظري لتجربـــة قصصية

الكتابة عمل من اعمال الانسان التي يعبر بها عـــن مدى تفاعله مع واقعه الحضاري والفكري على مستوى الفرد والجماعة .

الا انها ككل الاعمال الانسانيـــة ، الذهنيـــة منها والحسية ، تلتزم بقوانين وغايات وكيفيات ، يمليها عليها الظرف الزماني والمكاني .

والكتابة تلتزم بقوانين :

اهم هذه القوانين انها تلجأ الى ادوات : اصوات ، حركات ، تنغيمات ، رسوم . والكتابة الادبية التي نعنيها هنا تعتمد خاصة على الاحرف وكيفية وضعها او نطقها والتنسيق بينها ، لتكون الكلمات والحركات والاصوات والصورة . الكتابة الادبية تعتمد على اللغة . واللغة لها

الاجتماعية يضيف بعدا اجتماعيا تجسده رواية بلقيس حوماني « حي اللجى » التي تعرض لتراكم فلاحي الجنوب في ازقة بيروت ليشكلوا بروليتاريا المدينة الرثة .

وباستثناء روايات يوسف حبشي الاشقر او قصصه الطويلة « راحيل » و « خطيب الضيعة » فان بيروت تبقى ساحة الحدث الروائي في الرواية اللبنانية . وبيروت هي الاسم الذي يبتلع كافة الاسماء : مدينة كان توفيق عواد اعظم من جسمها في رواية « طواحين بيروت » ذات المشاهد البانورامية المريضة التي يمكن اعتبارها بالاضافة الـــى رواية غادة السمان « بيروت ٧٥ » مـــن الادب التشوفي المنذر بالكارثة . ان بيروت هي الوطـــن المغترب المضاع والمضيع في كلا الروايتين . ورموز المدينة البشرية في رواية عواد ثلاثة « الست روز » صاحبة البنسيون القوادة ، وسياسي يناضل من اجل رفع عمارة جديدة (وحبل الود موصول بينه وبين الست روز) وصحفي مأجور يسرح بنات افكاره لمضاجعة الثروة . وبيروت عواد هي مدينـــة الصراع الاثني الثقافي والقومي والطائفي والاجتماعـــي ، صراع الشمال والجنوب في الواقع ، وفي ذات بطل الرواية الماروني الذي يحاول خلع مثالاته الطائفية والتقليديـــة الطوطمية ، والزواج بالفتاة الجنوبية المسلمة تميمة . لكن الطواطم كانت اقوى،وتميمة لا تجد امامها سوى الانخراط في المقاومة الفلسطينية تناضل معها « حتى ينشق الليل عن فجر جديد ... »

والواضح من خلال تأزم وتردد البطل في رواية عواد الثانية « طواحين بيروت » ان هناك مأزقا لبنانيا صعبا ، ومن هنا تجيش نفس الكاتب بسخط رؤيوي Apocalyptic رهيب على مدينة لا يستطيـــع ان يجترح لهـــا خلاص فيستنزل عليها الهواء الاصفر ، والقنبلة الهيدروجينية علها تقتلع كي يمكن « لروح الله ان ترف على وجه القمر من جديد » .

كانت تلك نبوءة..وقد سجلت غادة السمان تحققها في اول رواية عن الحرب اللبنانية الاخيرة وهي روايـــة « كوابيس بيروت » التي تلتقط تفاصيل انفجار البراكين اللبنانية التي كانت قد رصدت مع عواد غليانها . ولو من خلال عدسة اضيق من بانورامية عواد وشموليته .

★ ★

ان الرواية العربية في صرختها المخضبة بالدم ضد القمع السياسي ، تبقى مواكبة للهم الاســـاسي في المجتمع العربي ، خاصة وان البعد الاجتماعي يبقى حاضرا في هذه الرواية ، وان تحول بنسبة او اخرى الى ظـــل خلفي في السنوات الاخيرة تحت ضغط الوتر السياسي والرواية بذلك تبقي وعينا مشتعلا بحقيقة انه « آن لكل ذلك ان ينتهي كما تنتهي كل حقارة اخرى » .

عفيف فراج
لبنان